تفسير سورة لقمان

آياتها أربع وثلاثون آية وهى مكية إلا ثلاث آيات، وهى قوله: ﴿ **ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام** ﴾ إلى تمام الآيات الثلاث . قاله ابن عباس فيما أخرجه النحاس عنه . وأخرج ابن الضريس وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عنه : أنها مكية ولم يستثن ، وحكى القرطبى عن قتادة: أنها مكية إلا آيتين. وأخرج النسائى وابن ماجة عن البراء قال : كنا نصلى خلف النبى ﷺ الظهر نسمع منه الآية بعد الآية من سورة لقمان والذاريات [١] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ **الٓمٓ (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (٢) هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ (٣) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥) وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٦) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ (٨) خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (١٠) هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (١١)** ﴾ .

قوله : ﴿ **الٓمٓ . تلك آيات الكتاب** ﴾ قد تقدم الكلام على أمثال فاتحة هذه السورة ومحلها من الإعراب مستوفى فلا نعيده، وبيان مرجع الإشارة أيضا، و﴿ **الحكيم** ﴾ إما أن يكون بمعنى مفعل، أو بمعنى فاعل، أو بمعنى ذى الحكمة أو الحكيم قائله، و﴿ **هدى ورحمة** ﴾ منصوبان على الحال على قراءة الجمهور. قال الزجاج : المعنى : تلك آيات الكتاب فى حال الهداية والرحمة، وقرأ حمزة:« ورحمة » بالرفع على أنهما خبر مبتدأ محذوف، أى هو هدى ورحمة، ويجوز أن يكونا خبر تلك. والمحسن: العامل للحسنات، أو من يعبد الله كأنه يراه كما ثبت عنه ﷺ فى الصحيح لما سأله جبريل عن الإحسان : فقال : « أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » [٢] ، ثم بين عمل المحسنين فقال : ﴿ **الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة**

---

(١) النسائى فى الكبرى فى صفة الصلاة (١٠٤٣/١) وابن ماجة فى إقامة الصلاة (٨٣٠) .

(٢) سبق تخريجه .

هم يوقنون ﴾ والموصول فى محل جر على الوصف للمحسنين، أو فى محل رفع، أو نصب على المدح أو القطع، وخص هذه العبادات الثلاث ؛ لأنها عمدة العبادات ﴿ **أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾** قد تقدم تفسير هذا فى أوائل سورة البقرة ، والمعنى هنا: أن أولئك المتصفين بالإحسان وفعل تلك الطاعات التى هى أمهات العبادات هم على طريقة الهدى، وهم الفائزون بمطالبهم الظافرون بخيرى الدارين .

﴿ **ومن الناس من يشترى لهو الحديث ﴾** : محل ﴿ **ومن الناس ﴾** الرفع على الابتداء كما تقدم بيانه فى سورة البقرة، وخبره ﴿ **من يشترى لهو الحديث ﴾** و«من» إما موصولة أو موصوفة، و ﴿**لهو الحديث**﴾ : كل ما يلهى عن الخير من الغناء والملاهى والأحاديث المكذوبة وكل ماهو منكر، والإضافة بيانية. وقيل: المراد: شراء القينات المغنيات والمغنين، فيكون التقدير: ومن يشترى أهل لهو الحديث. قال الحسن: لهو الحديث: المعازف والغناء. وروى عنه أنه قال: هو الكفر والشرك. قال القرطبى: إن أولى ما قيل فى هذا الباب هو: تفسير لهو الحديث بالغناء، قال: وهو قول الصحابة والتابعين [1]، واللام فى ﴿ **ليضل عن سبيل الله ﴾** للتعليل . قرأ الجمهور بضم الياء من ﴿ **ليضل ﴾** أى ليضل غيره عن طريق الهدى ومنهج الحق، وإذا أضل غيره فقد ضل فى نفسه. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن محيصن وحميد وورش وابن أبى إسحاق بفتح الياء. أى ليضل هو فى نفسه. قال الزجاج: من قرأ بضم الياء، فمعناه: ليضل غيره، فإذا أضل غيره فقد ضل هو، ومن قرأ بفتح الياء فمعناه: ليصير أمره إلى الضلال، وهو وإن لم يكن يشترى الضلالة، فإنه يصير أمره إلى ذلك، فأفاد هذا التعليل أنه إنما يستحق الذم من اشترى لهو الحديث لهذا المقصد، ويؤيد هذا سبب نزول الآية وسيأتى.

قال الطبرى : قد أجمع علماء الأمصار على كراهة الغناء والمنع منه ، وإنما فارق الجماعة إبراهيم بن سعد وعبد الله العنبرى. قال القاضى أبو بكر بن العربى: يجوز للرجل أن يسمع غناء جاريته إذ ليس شىء منها عليه حرام لا من ظاهرها ولا من باطنها ، فكيف يمنع من التلذذ بصوتها ؟ قلت : قد جمعت رسالة مشتملة على أقوال أهل العلم فى الغناء وما استدل به المحللون له والمحرمون له ، وحققت هذا المقام بما لا يحتاج من نظر فيها وتدبر معانيها إلى النظر فى غيرها، وسميتها [إبطال دعوى الإجماع، على تحريم مطلق السماع] فمن أحب تحقيق المقام كما ينبغى فليرجع إليها .

ومحل قوله :﴿بغير علم﴾ النصب على الحال، أى حال كونه غير عالم بحال ما يشتريه، أو بحال ما ينفع من التجارة وما يضر، فلهذا استبدل بالخير ما هو شر محض ﴿ **ويتخذها هزوا ﴾** قرأ الجمهور برفع: « يتخذها » عطفًا على ﴿ **يشترى ﴾** فهو من جملة الصلة. وقيل: الرفع على الاستئناف والضمير المنصوب فى ﴿ **يتخذها ﴾** يعود إلى الآيات المتقدم ذكرها، والأول أولى .

---

(١) القرطبى ٧ / ٥١٣٣ .

وقرأ حمزة والكسائى والأعمش : ﴿ **ويتخذها** ﴾ بالنصب عطفا على ﴿ **يضل** ﴾ ، والضمير المنصوب راجع إلى السبيل ، فتكون على هذه القراءة من جملة التعليل للتحريم ، والمعنى: أنه يشترى لهو الحديث للإضلال عن سبيل الله واتخاذ السبيل هزواً ، أى مهزوءا به، والسبيل يذكر ويؤنث ، والإشارة بقوله : ﴿ **أولئك لهم عذاب مهين** ﴾ إلى من ، والجمع باعتبار معناها ، كما أن الإفراد فى الفعلين باعتبار لفظها ، والعذاب المهين : هو الشديد الذى يصير به من وقع عليه مهينا .

﴿**وإذا تتلى عليه آياتنا**﴾ أى وإذا تتلى آيات القرآن على هذا المستهزئ ﴿**ولى مستكبرا**﴾ أى أعرض عنها حال كونه مبالغا فى التكبر، وجملة: ﴿**كأن لم يسمعها**﴾ فى محل نصب على الحال، أى كأن ذلك المعرض المستكبر لم يسمعها مع أنه قد سمعها ، ولكن أشبهت حاله حال من لم يسمع، وجملة: ﴿**كأن فى أذنيه وقرا**﴾ حال ثانية، أو بدل من التى قبلها، أو حال من ضمير يسمعها، ويجوز أن تكون مستأنفة. والوقر: الثقل، وقد تقدم بيانه، وفيه مبالغة فى إعراض ذلك المعرض ﴿**فبشره بعذاب أليم**﴾ أى أخبره بأن له العذاب البليغ فى الألم. ثم لما بين سبحانه حال من يعرض عن الآيات بين حال من يقبل عليها، فقال : ﴿**إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات**﴾ أى آمنوا بالله وبآياته ولم يعرضوا عنها بل قبلوها وعملوا بها ﴿**لهم جنات النعيم**﴾ أى نعيم الجنات فعكسه للمبالغة، جعل لهم جنات النعيم كما جعل للفريق الأول العذاب المهين، وانتصاب ﴿ **خالدين فيها** ﴾ على الحال. وقرأ زيد بن على: « خالدون فيها » على أنه خبر ثان لأن ﴿وعد الله حقا﴾ هما مصدران الأول مؤكد لنفسه، أى وعد الله وعدا. والثانى مؤكد لغيره، وهو مضمون الجملة الأولى وتقديره :حق ذلك حقا . والمعنى : أن وعده كائن لا محالة ولا خلف فيه ﴿ **وهو العزيز** ﴾ الذى لايغلبه غالب ﴿ **الحكيم** ﴾ فى كل أفعاله وأقواله .

ثم بين سبحانه عزته وحكمته بقوله:﴿خلق السموات بغير عمد ترونها﴾ العمد :جمع عماد، وقد تقدم الكلام فيه فى سورة الرعد. و ﴿ **ترونها** ﴾ فى محل جر صفة لـ ﴿ **عمد** ﴾ فيمكن أن تكون ثم عمد، ولكن لا ترى . ويجوز أن تكون فى موضع نصب على الحال ، أى ولا عمد ألبتة. قال النحاس : وسمعت على بن سليمان يقول : الأولى أن يكون مستأنفا، أى ولا عمد ثم ﴿**وألقى فى الأرض رواسى**﴾ أى جبالا ثوابت ﴿**أن تميد بكم**﴾ فى محل نصب على العلة، أى كراهة أن تميد بكم . والكوفيون يقدرونه : لئلا تميد ، والمعنى : أنها خلقها وجعلها مستقرة ثابتة لا تتحرك بجبال جعلها عليها وأرساها على ظهرها ﴿ **وبث فيها من كل دابة** ﴾ أى من كل نوع من أنواع الدواب، وقد تقدم بيان معنى البث ﴿**وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم**﴾ أى أنزلنا من السماء مطرا فأنبتنا فيها بسبب إنزاله من كل زوج، أى من كل صنف، ووصفه بكونه كريما ؛ لحسن لونه وكثرة منافعه. وقيل: إن المراد بذلك : الناس. فالكريم منهم من يصير إلى الجنة، واللئيم من يصير إلى النار. قاله الشعبى وغيره، والأول أولى.

والإشارة بقوله : ﴿ **هذا** ﴾ إلى ما ذكر فى خلق السموات والأرض ، وهو مبتدأ وخبره ﴿ **خلق الله**﴾ أى مخلوقه ﴿ **فأرونى ماذا خلق الذين من دونه** ﴾ من آلهتكم التى تعبدونها، والاستفهام للتقريع والتوبيخ، والمعنى: فأرونى أى شىء خلقوا مما يحاكى خلق الله أو يقاربه، وهذا الأمر لهم لقصد التعجيز والتبكيت. ثم أضرب عن تبكيتهم بما ذكر إلى الحكم عليهم بالضلال الظاهر فقال: ﴿**بل الظالمون فى ضلال**﴾ فقرر ظلمهم أولا وضلالهم ثانيا، ووصف ضلالهم بالوضوح والظهور، ومن كان هكذا فلا يعقل الحجة ولا يهتدى إلى الحق.

وقد أخرج البيهقى فى الشعب عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ومن الناس من يشترى لهو الحديث** ﴾ يعنى : باطل الحديث. وهو النضر بن الحارث بن علقمة اشترى أحاديث الأعاجم وصنيعهم فى دهرهم. وكان يكتب الكتب من الحيرة إلى الشام ويكذب بالقرآن (١) . وأخرج الفريابى وابن جرير وابن مردويه عنه فى الآية قال: باطل الحديث : وهو الغناء ونحوه ﴿ **ليضل عن سبيل الله** ﴾ قال : قراءة القرآن وذكر الله، نزلت فى رجل من قريش اشترى جارية مغنية. وأخرج البخارى فى الأدب المفرد، وابن أبى الدنيا وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى السنن عنه أيضا فى الآية قال : هو الغناء وأشباهه. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عنه أيضا فى الآية قال : الجوارى الضاريات. وأخرج ابن أبى شيبة وابن أبى الدنيا وابن جرير وابن المنذر، والحاكم وصححه، والبيهقى فى الشعب عن أبى الصهباء قال : سألت عبد الله بن مسعود عن قوله : ﴿ **ومن الناس من يشترى لهو الحديث** ﴾ قال : هو والله الغناء . ولفظ ابن جرير: هو الغناء والله الذى لا إله إلا هو، يرددها ثلاث مرات. وأخرج سعيد بن منصور وأحمد والترمذى وابن ماجة وابن أبى الدنيا وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه والبيهقى عن أبى أمامة عن رسول الله ﷺ قال: « لا تبيعوا القينات ولا تشتروهن، ولا خير فى تجارة فيهن وثمنهن حرام » فى مثل هذا أنزلت هذه الآية : ﴿ **ومن الناس من يشترى لهو الحديث** ﴾ الآية (٢) ، وفى إسناده عبيد بن زحر عن على بن زيد عن القاسم بن عبد الرحمن وفيهم ضعف .

وأخرج ابن أبى الدنيا فى ذم الملاهى ، وابن مردويه عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « إن الله حرم القينة وبيعها وثمنها وتعليمها والاستماع إليها » ، ثم قرأ : ﴿ **ومن الناس من يشترى لهو الحديث** ﴾ . وأخرج ابن أبى الدنيا ، والبيهقى فى السنن عن ابن مسعود قال :

---

(١) البيهقى فى الشعب (٤٨٣٠) وإسناده ضعيف جدا . محمد بن مروان السدى ضعيف وأبو صالح باذام ضعيف مدلس .

(٢) أحمد ٥/ ٢٦٤ والترمذى فى التفسير (٣١٩٥) وقال : « هذا حديث غريب يروى من حديث القاسم عن أبى أمامة ، والقاسم ثقة ، وعلى بن زيد يضعف فى الحديث » وابن ماجة فى التجارات (٢١٦٨) وابن جرير ٢١/ ٣٩ والطبرانى (٧٧٤٩) وفيه سويد بن عبد العزيز قال الحافظ فى تقريب التهذيب (٥٩٩) : « لين الحديث » . والبيهقى ٦/ ١٤ .

قال رسول الله ﷺ : « الغناء ينبت النفاق كما ينبت الماء البقل »[١] ورويا عنه موقوفا. وأخرج ابن أبى الدنيا وابن مردويه عن أبى أمامة؛ أن رسول الله ﷺ قال: « ما رفع أحد صوته بغناء إلا بعث الله إليه شيطانين يجلسان على منكبيه يضربان بأعقابهما على صدره حتى يمسك »[٢] .

وفى الباب أحاديث فى كل حديث منها مقال. وأخرج البيهقى فى الشعب عن ابن مسعود فى قوله: ﴿ **ومن الناس من يشترى لهو الحديث** ﴾ قال : الرجل يشترى جارية تغنيه ليلا ونهارا. وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن عمر؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول فى قوله : ﴿ **ومن الناس من يشترى لهو الحديث**﴾: «إنما ذلك شراء الرجل اللعب والباطل». وأخرج ابن أبى الدنيا والبيهقى عن نافع قال: كنت أسير مع عبد الله بن عمر فى طريق، فسمع زمارة فوضع أصبعيه فى أذنيه، ثم عدل عن الطريق، فلم يزل يقول: يا نافع، أتسمع ؟ قلت: لا، فأخرج أصبعيه من أذنيه . وقال: هكذا رأيت رسول الله ﷺ صنع[٣] . وأخرج ابن أبى الدنيا عن عبد الرحمن ابن عوف ؛ أن رسول الله ﷺ قال: « إنما نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين: صوت عند نغمة لهو ومزامير شيطان، وصوت عند مصيبة خمش وجوه وشق جيوب ورنة شيطان » .

﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (١٢) وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥) يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦) يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧) وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩)** ﴾ .

---

(١) البيهقى فى السنن ١٠/ ٢٢٣ وفى الشعب (٤٧٤٦) وفيه محمد بن صالح . قال ابن حبان : « يخطئ ، وعبد الله بن عبد العزيز ضعيف ، وإبراهيم بن طهمان تكلم فيه » .

(٢) أخرجه الطبرانى (٧٨٢٥) وقال الهيثمى فى المجمع ٨/ ١٢٢ ، ١٢٣ : « رواه الطبرانى بأسانيد ورجال أحدها وثقوا وضعفوا » .

(٣) البيهقى فى السنن ١٠/ ٢٢٢ وفى الشعب (٤٧٦٠) وأبو داود فى الأدب (٤٩٢٤) وفى إسناده من لا يعرف .

اختلف فى لقمان هل هو عجمى أم عربى ؟ مشتق من اللقم . فمن قال: إنه عجمى، منعه للتعريف والعجمة، ومن قال: إنه عربى، منعه للتعريف ولزيادة الألف والنون. واختلفوا أيضا هو نبى أم رجل صالح ؟ فذهب أكثر أهل العلم إلى أنه ليس بنبى . وحكى الواحدى عن عكرمة والسدى والشعبى أنه كان نبيا، والأول أرجح لما سيأتى فى آخر البحث. وقيل: لم يقل بنبوته إلا عكرمة فقط . مع أن الراوى لذلك عنه جابر الجعفى وهو ضعيف جدا. وهو لقمان بن باعورا بن ناحور بن تارخ ، وهو آزر أبو إبراهيم، وقيل: هو لقمان بن عنقا بن مرون، وكان نوبيا من أهل أيلة ذكره السهيلى . قال وهب : هو ابن أخت أيوب. وقال مقاتل: هو ابن خالته، عاش ألف سنة وأخذ عنه العلم، وكان يفتى قبل مبعث داود، فلما بعث داود قطع الفتوى، فقيل له، فقال: ألا أكتفى إذ كفيت؟ قال الواقدى: كان قاضيا فى بنى إسرائيل، والحكمة التى آتاها الله هى : الفقه والعقل والإصابة فى القول ، وفسر الحكمة من قال بنبوته بالنبوة ﴿ **أن اشكر لى** ﴾: « أن » هى المفسرة؛ لأن فى إيتاء الحكمة معنى القول. وقيل: التقدير: قلنا له: أن اشكر لى . وقال الزجاج: المعنى: ولقد آتينا لقمان الحكمة لأن اشكر لى. وقيل : بأن اشكر لى فشكر فكان حكيما بشكره. والشكر لله الثناء عليه فى مقابلة النعمة وطاعته فيما أمر به. ثم بين سبحانه أن الشكر لا ينتفع به إلا الشاكر، فقال : ﴿ **ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه** ﴾ لأن نفع ذلك راجع إليه وفائدته حاصلة له؛ إذ به تستبقى النعمة وبسببه يستجلب المزيد لها من الله سبحانه ﴿ **ومن كفر فإن الله غنى حميد** ﴾ أى من جعل كفر النعم مكان شكرها، فإن الله غنى عن شكره غير محتاج إليه، حميد مستحق للحمد من خلقه؛ لإنعامه عليهم بنعمه التى لايحاط بقدرها ولا يحصر عددها، وإن لم يحمده أحد من خلقه، فإن كل موجود ناطق بحمده بلسان الحال . قال يحيى ابن سلام : غنى عن خلقه حميد فى فعله .

﴿ **وإذ قال لقمان لابنه** ﴾ قال السهيلى : اسم ابنه ثاران فى قول ابن جرير والقتيبى. وقال الكلبى: مشكم. وقال النقاش: أنعم. وقيل: ماتان. قال القشيرى: كان ابنه وامرأته كافرين فما زال يعظهما حتى أسلما، وهذه الجملة معطوفة على ما تقدم، والتقدير: آتينا لقمان الحكمة حين جعلناه شاكراً فى نفسه، وحين جعلناه واعظا لغيره. قال الزجاج: « إذ » فى موضع نصب بـ ﴿**آتينا** ﴾ . والمعنى: ولقد آتينا لقمان الحكمة إذ قال. قال النحاس: وأحسبه غلطا لأن فى الكلام واوا وهى تمنع من ذلك، ومعنى ﴿ **وهو يعظه** ﴾ : يخاطبه بالمواعظ التى ترغبه فى التوحيد وتصده عن الشرك ﴿ **يا بنى لا تشرك بالله** ﴾ قرأ الجمهور بكسر الياء. وقرأ ابن كثير بإسكانها. وقرأ حفص بفتحها، ونهيه عن الشرك يدل على أنه كان كافرا كما تقدم، وجملة: ﴿**إن الشرك لظلم عظيم**﴾ تعليل لما قبلها، وبدأ فى وعظه بنهيه عن الشرك لأنه أهم من غيره. وقد اختلف فى هذه الجملة، فقيل : هى من كلام لقمان . وقيل : هى من كلام الله ، فتكون منقطعة عما قبلها ، ويؤيد هذا ما ثبت فى الحديث الصحيح أنها لما نزلت : ﴿ ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾ [الأنعام : ٨٢] شق

ذلك على الصحابة ، وقالوا : أينا لم يظلم نفسه . فأنزل الله : ﴿ **إن الشرك لظلم عظيم** ﴾ [١] فطابت أنفسهم .

﴿ **ووصينا الإنسان بوالديه** ﴾ هذه التوصية بالوالدين وما بعدها إلى قوله : ﴿ **بما كنتم تعملون** ﴾ اعتراض بين كلام لقمان لقصد التأكيد لما فيها من النهى عن الشرك بالله، وتفسير التوصية هى قوله : ﴿ **أن اشكر لى ولوالديك** ﴾ وما بينهما اعتراض بين المفسَّر والمفسِّر، وفى جعل الشكر لهما مقترنا بالشكر لله دلالة على أن حقهما من أعظم الحقوق على الولد، وأكبرها وأشدها وجوبا، ومعنى: ﴿ **حملته أمه وهنا على وهن** ﴾ أنها حملته فى بطنها وهى تزداد كل يوم ضعفا على ضعف، وقيل: المعنى: إن المرأة ضعيفة الخلقة، ثم يضعفها الحمل . وانتصاب ﴿ **وهنا** ﴾ على المصدر. وقال النحاس : على أنه مفعول ثان بإسقاط الحرف، أى حملته بضعف على ضعف ، وقال الزجاج : المعنى : لزمها بحملها إياه أن تضعف، مرة بعد مرة . وقيل : انتصابه على الحال من أمه ، و﴿ **على وهن** ﴾ صفة لـ ﴿ **وهنا** ﴾ أى: وهنا كائنا على وهن . قرأ الجمهور بسكون الهاء فى الموضعين . وقرأ عيسى الثقفى وهى رواية عن أبى عمرو بفتحهما وهما لغتان . قال قعنب:

هل للعواذل من ناه فيزجرها إن العواذل فيها الأين والوهن

﴿ **وفصاله فى عامين** ﴾ الفصال : الفطام ، وهو أن يفصل الولد عن الأم، وهو مبتدأ وخبره الظرف. وقرأ الجحدرى وقتادة وأبو رجاء والحسن ويعقوب :« وفصله » وهما لغتان، يقال : انفصل عن كذا ، أى تميز، وبه سمى الفصيل. وقد قدمنا أن أمه فى قوله : ﴿ **أن اشكر لى ولوالديك** ﴾ هى المفسرة . وقال الزجاج : هى مصدرية. والمعنى : بأن اشكر لى . قال النحاس : وأجود منه أن تكون « أن » مفسرة ، وجملة : ﴿ **إلى المصير** ﴾ تعليل لوجوب امتثال الأمر، أى الرجوع إلىّ لا إلى غيرى .

﴿ **وإن جاهداك على أن تشرك بى ماليس لك به علم** ﴾ أى ما لا علم لك بشركته﴿ **فلا تطعهما** ﴾ فى ذلك. وقد قدمنا تفسير الآية وسبب نزولها فى سورة العنكبوت ، وانتصاب ﴿**معروفا** ﴾ على أنه صفة لمصدر محذوف ، أى وصاحبهما صحابا معروفا . وقيل : هو منصوب بنزع الخافض ، والتقدير : بمعروف ﴿ **واتبع سبيل من أناب إلى** ﴾ أى اتبع سبيل من رجع إلى من عبادى الصالحين بالتوبة والإخلاص﴿ **ثم إلى مرجعكم** ﴾ جميعا لا إلى غيرى ﴿**فأنبئكم** ﴾ أى أخبركم عند رجوعكم ﴿ **بما كنتم تعملون** ﴾ من خير وشر فأجازى كل عامل بعمله. وقد قيل : إن هذا السياق من قوله : ﴿ **ووصينا الإنسان** ﴾ إلى هنا من كلام لقمان فلا يكون اعتراضا وفيه بعد .

---

(١) البخارى فى التفسير (٤٧٧٦) ومسلم فى الإيمان (١٢٤ / ١٩٧) والترمذى فى التفسير (٣٠٦٧) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » والنسائى فى التفسير (١٨٦) كلهم عن ابن مسعود .

ثم شرع سبحانه فى حكاية بقية كلام لقمان فى وعظه لابنه فقال : ﴿ **يا بنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل** ﴾ الضمير فى ﴿ **إنها** ﴾ عائد إلى الخطيئة ، لما روى أن ابن لقمان قال لأبيه : يا أبت إن عملت الخطيئة حيث لايرانى أحد هل يعلمها الله ؟ فقال : إنها ، أى الخطيئة ، والجملة الشرطية مفسرة للضمير ، أى إن الخطيئة إن تك مثقال حبة من خردل . قال الزجاج : التقدير : إن التى سألتنى عنها إن تك مثقال حبة من خردل ، وعبر بالخردلة ؛ لأنها أصغر الحبوب ولا يدرك بالحس ثقلها ولا ترجح ميزانا . وقيل : إن الضمير فى : ﴿ **إنها** ﴾ راجع إلى الخصلة من الإساءة والإحسان ، أى إن الخصلة من الإساءة والإحسان إن تك مثقال حبة إلخ ، ثم زاد فى بيان خفاء الحبة مع خفتها فقال : ﴿ **فتكن فى صخرة** ﴾ فإن كونها فى الصخرة قد صارت فى أخفى مكان وأحرزه ﴿ **أو فى السموات أو فى الأرض** ﴾ أى أو حيث كانت من بقاع السموات أو من بقاع الأرض ﴿ **يأت بها الله** ﴾ أى يحضرها ويحاسب فاعلها عليها ﴿ **إن الله لطيف** ﴾ لا تخفى عليه خافية ، بل يصل علمه إلى كل خفى ﴿**خبير**﴾ بكل شىء لا يغيب عنه شىء . قرأ الجمهور : ﴿ **إن تك** ﴾ بالفوقية على معنى إن تك الخطيئة أو المسألة أو الخصلة أوالقصة . وقرؤوا : ﴿**مثقال**﴾ بالنصب على أنه خبر كان ، واسمها هو أحد تلك المقدرات . وقرأ نافع برفع : « مثقال » على أنه اسم كان وهى تامة . وأنث الفعل فى هذه القراءة لإضافة مثقال إلى المؤنث . وقرأ الجمهور : ﴿ **فتكن** ﴾ بضم الكاف ، وقرأ الجحدرى بكسرها وتشديد النون . من الكن الذى هو الشىء المغطى . قال السدى : هذه الصخرة هى صخرة ليست فى السموات ولا فى الأرض .

ثم حكى سبحانه عن لقمان أنه أمر ابنه بإقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والصبر على المصيبة . ووجه تخصيص هذه الطاعات أنها أمهات العبادات وعماد الخيركله ، والإشارة بقوله : ﴿ **إن ذلك** ﴾ إلى الطاعات المذكورة ، وخبر« إن » قوله : ﴿ **من عزم الأمور** ﴾ أى مما جعله اللّه عزيمة وأوجبه على عباده . وقيل : المعنى : من حق الأمور التى أمر الله بها . والعزم يجوز أن يكون بمعنى المعزوم ، أى من معزومات الأمور أو بمعنى العازم كقوله : ﴿ فإذا عزم الأمر ﴾ [محمد : ٢١] قال المبرد : إن العين تبدل حاء . فيقال : عزم وحزم . قال ابن جرير : ويحتمل أن يريد أن ذلك من مكارم أهل الأخلاق وعزائم أهل الحزم السالكين طريق النجاة ، وصوب هذا القرطبى . ﴿ **ولا تصاعر خدك للناس** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **تصعر** ﴾ وقرأ ابن كثير وابن عامر وعاصم : « تصاعر » والمعنى متقارب . والصعر : الميل ، يقال : صعر خده وصاعر خده : إذا أمال وجهه ، وأعرض تكبرا . والمعنى : لا تعرض عن الناس تكبرا عليهم ، ومنه قول الشاعر :

وكنا إذا الجبار صعر خده مشينا إليه بالسيوف نعاتبه

ورواه ابن جرير هكذا :

وكنا إذا الجبار صعر خده أقمنا له من ميله فتقوما

قال الهروى : ﴿ولا تصاعر خدك للناس﴾ أى لا تعرض عنهم تكبرا، يقال: أصاب البعير صعر: إذا أصابه داء يلوى عنقه. وقيل : المعنى : ولا تلو شدقك إذا ذكر الرجل عندك كأنك تحتقره. وقال ابن خويز منداد: كأنه نهى أن يذل الإنسان نفسه من غير حاجة، ولعله فهم من التصعير التذلل ﴿ ولا تمش فى الأرض مرحا ﴾ أى خيلاء وفرحا، والمعنى: النهى عن التكبر والتجبر، والمختال يمرح فى مشيه، وهو مصدر فى موضع الحال، وقد تقدم تحقيقه، وجملة : ﴿إن الله لا يحب كل مختال فخور ﴾ تعليل للنهى لأن الاختيال هو المرح ، والفخور هو الذى يفتخر على الناس بِمَا لَهُ من المال أو الشرف أو القوة أو غير ذلك ، وليس منه التحدث بنعم الله، فإن الله يقول : ﴿ وأما بنعمة ربك فحدث ﴾ [الضحى:١١] .

﴿واقصد فى مشيك﴾ أى توسط فيه، والقصد : ما بين الإسراع والبطء، يقال: قصد فلان فى مشيته: إذا مشى مستويا لا يدب دبيب المتماوتين ، ولا يثب وثوب الشياطين . وقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان إذا مشى أسرع (١) ، فلابد أن يحمل القصد هنا على ما جاوز الحد فى السرعة. وقال مقاتل: معناه : لا تختل فى مشيتك . وقال عطاء : امش بالوقار والسكينة . كقوله :﴿ يمشون على الأرض هونا﴾ [الفرقان:٦٣] ﴿ واغضض من صوتك ﴾ أى انقص منه واخفضه ولا تتكلف رفعه، فإن الجهر بأكثر من الحاجة يؤذى السامع، وجملة : ﴿ إن أنكر الأصوات لصوت الحمير ﴾ تعليل للأمر بالغض من الصوت، أى أوحشها وأقبحها. قال قتادة: أقبح الأصوات صوت الحمير؛ أوله زفير وآخره شهيق . قال المبرد: تأويله: إن الجهر بالصوت ليس بمحمود، وإنه داخل فى باب الصوت المنكر. واللام فى﴿ لصوت ﴾ للتأكيد، ووحد الصوت مع كونه مضافا إلى الجمع لأنـه مصدر، وهو يدل على الكثرة ، وهو مصدر صات يصوت صوتا فهو صائت .

وقد أخرج ابن مردويه عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ :« أتدرون ما كان لقمان ؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: كان حبشياً ». وأخرج ابن أبى شيبة، وأحمد فى الزهد، وابن أبى الدنيا فى كتاب المملوكين، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: كان لقمان عبدا حبشيا نجارا. وأخرج الطبرانى، وابن حبان فى الضعفاء، وابن عساكر عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « اتخذوا السودان فإن ثلاثة منهم سادات أهل الجنة : لقمان الحكيم ، والنجاشى، وبلال المؤذن» (٢). قال الطبرانى: أراد الحبشة. وأخرج ابن مردويه عنه أيضا فى قوله: ﴿ ولقد آتينا لقمان الحكمة ﴾ يعنى: العقل والفهم والفطنة فى غير نبوة. وأخرج ابن جرير

(١) أحمد ٢/ ٣٥٠ والترمذى فى المناقب (٣٦٤٨) وقال: « هذا حديث غريب» . كلاهما عن أبى هريرة وأحمد ١/ ٩٦ والترمذى فى المناقب (٣٦٣٧) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » كلاهما عن علىٍّ .

(٢) الطبرانى (١١٤٨٢) وقال الهيثمى فى المجمع ٤/ ٢٣٩ : « فيه أبين بن سفيان وهو ضعيف » وابن حبان فى المجروحين ١/ ١٨٠ وقال : « هذا حديث باطل » وابن عساكر ٣/ ٢٣٢ وأورده ابن الجوزى فى الموضوعات ٢/ ٢٣٢ .

وابن أبى حاتم عن عكرمة؛ أنه كان نبيا، وقد قدمنا أن الراوى عنه جابر الجعفى، وهو ضعيف جدا. وأخرج أحمد والحكيم الترمذى، والحاكم فى الكنى، والبيهقى فى الشعب عن ابن عمر عن النبى ﷺ قال : « إن لقمان الحكيم كان يقول: إن الله إذا استودع شيئا حفظه» (١) . وقد ذكر جماعة من أهل الحديث روايات عن جماعة من الصحابة والتابعين تتضمن كلمات من مواعظ لقمان وحكمه، ولم يصح عن رسول الله ﷺ من ذلك شىء ولا ثبت إسناد صحيح إلى لقمان بشىء منها حتى نقبله. وقد حكى الله سبحانه من مواعظه لابنه ما حكاه فى هذا الوضع، وفيه كفاية وما عدا ذلك مما لم يصح فليس فى ذكره إلا شغلة للحيز وقطيعة للوقت، ولم يكن نبيا حتى يكون ما نقل عنه من شرع من قبلنا، ولا صح إسناد ما روى عنه من الكلمات حتى يكون ذكر ذلك من تدوين كلمات الحكمة التى هى ضالة المؤمن .

وأخرج أبو يعلى والطبرانى وابن مردويه وابن عساكر عن أبى عثمان النهدى؛ أن سعد بن أبى وقاص قال: أنزلت فى هذه الآية: ﴿ **وإن جاهداك على أن تشرك بى** ﴾ (٢) ، وقد تقدم ذكر هذا. وأخرج ابن جرير عن أبى هريرة قال : نزلت هذه الآية فى سعد بن أبى وقاص. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وهنا على وهن** ﴾ قال: شدة بعد شدة وخلقا بعد خلق . وأخرج الطبرانى وابن عدى وابن مردويه عن أبى أيوب الأنصارى أن رسول الله ﷺ سئل عن قوله: ﴿**ولا تصعر خدك للناس**﴾ فقال : « لى الشدق » (٣) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولا تصعرخدك للناس** ﴾ قال : لا تتكبر فتحتقر عباد الله وتعرض عنهم إذا كلموك. وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى الآية قال: هو الذى إذا سلم عليه لوى عنقه كالمستكبر .

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (٢٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ (٢١) وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ (٢٢) وَمَن كَفَرَ فَلا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ

---

(١) أحمد ٢/ ٨٧ والبيهقى فى الشعب (٣٠٧٣) وإسناده مقبول والنسائى فى الكبرى فى عمل اليوم والليلة (١٠٣٥٢) .

(٢) أبو يعلى (٧٨٢) والطبرانى (٣٣١) وأخرجه أحمد ١/ ١٨٦ ومسلم فى فضائل الصحابة (٤٣/١٧٤٨) كلهم عن مصعب بن سعد ولم أجده عن أبى عثمان النهدى .

(٣) الطبرانى (٤٠٧) وقال الهيثمى فى المجمع ٨/ ١١٧: « فيه واصل بن السائب وهو متروك » . وكذلك فيه أبو سورة قال الحافظ فى تقريب التهذيب ٢/ ٤٣٢ (٩٩) : « ضعيف » .

بِذَاتِ الصُّدُورِ (٢٣) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٢٤) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٢٥) لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٦) وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٧) مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٢٨) ﴾ .

لما فرغ سبحانه من قصة لقمان رجع إلى توبيخ المشركين وتبكيتهم وإقامة الحجج عليهم فقال: ﴿ **ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض** ﴾ قال الزجاج : معنى تسخيرها للآدميين : الانتفاع بها انتهى ، فمن مخلوقات السموات المسخرة لبنى آدم ، أى التى ينتفعون بها : الشمس القمر والنجوم ونحو ذلك . ومن جملة ذلك : الملائكة فإنهم حفظة لبنى آدم بأمر الله سبحانه، ومن مخلوقات الأرض المسخرة لبنى آدم : الأحجار والتراب والزرع والشجر والثمر والحيوانات التى ينتفعون بها والعشب الذى يرعون فيه دوابهم ، وغير ذلك مما لا يحصى كثرة، فالمراد بالتسخير: جعل المسخر بحيث ينتفع به المسخر له، سواء كان منقادا له وداخلا تحت تصرفه أم لا ﴿ **وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة** ﴾ أى أتم وأكمل عليكم نعمه ، يقال : سبغت النعمة إذا تمت وكملت. قرأ الجمهور: ﴿ **أسبغ** ﴾ بالسين، وقرأ ابن عباس ويحيى ابن عمارة : « أصبغ » بالصاد مكان السين . والنعم جمع نعمة على قراءة نافع وأبى عمرو وحفص ، وقرأ الباقون : « نعمة » بسكون العين على الإفراد والتنوين اسم جنس يراد به الجمع ويدل به على الكثرة ، كقوله : ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ [إبراهيم: ٣٤] وهى قراءة ابن عباس . والمراد بالنعم الظاهرة : ما يدرك بالعقل أو الحس ويعرفه من يتعرفه ، وبالباطنة : ما لا يدرك للناس ويخفى عليهم . وقيل : الظاهرة : الصحة وكمال الخلق ، والباطنة : المعرفة والعقل . وقيل : الظاهرة ما يرى بالأبصار من المال والجاه والجمال وفعل الطاعات ، والباطنة : ما يجده المرء فى نفسه من العلم بالله وحسن اليقين وما يدفعه الله عن البعد من الآفات . وقيل : الظاهرة نعم الدنيا، والباطنة : نعم الآخرة . وقيل : الظاهرة : الإسلام والجمال، والباطنة: ما ستره الله على العبد من الأعمال السيئة ﴿ **ومن الناس من يجادل فى الله** ﴾ أى فى شأن الله سبحانه فى توحيده وصفاته؛ مكابرة وعنادا بعد ظهور الحق له وقيام الحجة عليه، ولهذا قال : ﴿ **بغير علم** ﴾ من عقل ولا نقل ﴿ **ولا هدى** ﴾ يهتدى به إلى طريق الصواب ﴿ **ولا كتاب منير** ﴾ أنزله الله سبحانه، بل مجرد تعنت ومحض عناد. وقد تقدم تفسير هذه الآية فى سورة البقرة .

﴿ **وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله** ﴾ أى إذا قيل لهؤلاء المجادلين . والجمع باعتبار معنى من ، اتبعوا ما أنزل الله على رسوله من الكتاب تمسكوا بمجرد التقليد البحت . و﴿ **قالوا بل نتبع**

ما وجدنا عليه آباءنا ﴾ فنعبد ما كانوا يعبدونه من الأصنام ، ونمشى فى الطريق التى كانوا يمشون بها فى دينهم، ثم قال على طريق الاستفهام للاستبعاد والتبكيت ﴿ **أو لوكان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير** ﴾ أى يدعو آباءهم الذين اقتدوا بهم فى دينهم ، أى يتبعونهم فى الشرك ، ولوكان الشيطان يدعوهم فيما هم عليه من الشرك ، ويجوز أن يراد أنه يدعو هؤلاء الأتباع إلى عذاب السعير؛ لأنه زين لهم اتباع آبائهم والتدين بدينهم ، ويجوز أن يراد أنه يدعو جميع التابعين والمتبوعين إلى العذاب ، فدعاؤه للمتبوعين بتزيينه لهم الشرك، ودعاؤه للتابعين بتزيينه لهم دين آبائهم ، وجواب لو محذوف ، أى يدعوهم فيتبعونهم ، ومحل الجملة النصب على الحال . وما أقبح التقليد ، وأكثر ضرره على صاحبه ، وأوخم عاقبته ، وأشأم عائدته على من وقع فيه. فإن الداعى له إلى ما أنزل الله على رسوله كمن يريد أن يذود الفراش عن لهب النار لئلا تحترق ، فتأبى ذلك وتتهافت فى نار الحريق وعذاب السعير.

﴿ **ومن يسلم وجهه إلى الله** ﴾ أى يفوض إليه أمره ، ويخلص له عبادته ويقبل عليه بكليته ﴿ **وهو محسن** ﴾ فى أعماله؛ لأن العبادة من غير إحسان لها ولا معرفة بما يحتاج إليه فيها، لا تقع بالموقع الذى تقع به عبادة المحسنين . وقد صح عن الصادق المصدوق لما سأله جبريل عن الإحسان أنه قال له : « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » [(١)]. ﴿ **فقد استمسك بالعروة الوثقى** ﴾ أى اعتصم بالعهد الأوثق وتعلق به، وهو تمثيل لحال من أسلم وجهه إلى الله بحال من أراد أن يترقى إلى شاهق جبل ، فتمسك بأوثق عرى حبل متدل منه ﴿ **وإلى الله عاقبة الأمور** ﴾ أى مصيرها إليه لا إلى غيره. وقرأ على بن أبى طالب والسلمى وعبد الله بن مسلم بن يسار: « ومن يسلم » بالتشديد ، قال النحاس: والتخفيف فى هذا أعرف كما قال عز وجل: ﴿ فقل أسلمت وجهى لله ﴾ [آل عمران: ٢٠] ﴿ **ومن كفر فلا يحزنك كفره** ﴾ أى لا تحزن لذلك، فإن كفره لا يضرك، بين سبحانه حال الكافرين بعد فراغه من بيان حال المؤمنين، ثم توعدهم بقوله: ﴿ **إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا** ﴾ أى نخبرهم بقبائح أعمالهم ونجازيهم عليها ﴿ **إن الله عليم بذات الصدور** ﴾ أى بما تسره صدورهم لا تخفى عليه من ذلك خافية. فالسر عنده كالعلانية.

﴿ **نمتعهم قليلا** ﴾ أى نبقيهم فى الدنيا مدة قليلة يتمتعون بها. فإن النعيم الزائل هو أقل قليل بالنسبة إلى النعيم الدائم. وانتصاب ﴿ **قليلا** ﴾ على أنه صفة لمصدر محذوف، أى تمتيعا قليلا : ﴿ **ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ** ﴾ أى نلجئهم إلى عذاب النار . فإنه لا أثقل منه على من وقع فيه وأصيب به، فلهذا استعير له الغلظ : ﴿ **ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله** ﴾ أى يعترفون بالله خالق ذلك لوضوح الأمر فيه عندهم. وهذا اعتراف منهم بما يدل على التوحيد وبطلان الشرك ، ولهذا قال : ﴿ **قل الحمد لله** ﴾ أى قل يا محمد: الحمد لله على

---

(١) سبق تخريجه .

اعترافكم، فكيف تعبدون غيره وتجعلونه شريكا له ؟ أو المعنى: فقل : الحمد لله على ما هدانا له من دينه ولا حمد لغيره ، ثم أضرب عن ذلك فقال : ﴿ **بل أكثرهم لا يعلمون** ﴾ أى لا ينظرون ولا يتدبرون حتى يعلموا أن خالق هذه الأشياء هو الذى تجب له العبادة دون غيره. ﴿ **لله ما فى السموات والأرض** ﴾ ملكا وخلقا فلا يستحق العبادة غيره ﴿ **إن الله هو الغنى** ﴾ عن غيره ﴿ **الحميد** ﴾ أى المستحق للحمد أو المحمود من عباده بلسان المقال أو بلسان الحال.

ثم لما ذكر سبحانه أن له ما فى السموات والأرض أتبعه بما يدل على أن له وراء ذلك ما لا يحيط به عدد ولايحصر بحد فقال : ﴿ **ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام** ﴾ أى لو أن جميع ما فى الأرض من الشجر أقلام . ووحد الشجرة لما تقرر فى علم المعانى : أن استغراق المفرد أشمل، فكأنه قال: كل شجرة شجرة حتى لايبقى من جنس الشجر واحدة إلا وقد بريت أقلاما، وجمع الأقلام لقصد التكثير، أى لو أن يعد كل شجرة من الشجر أقلاما. قال أبوحيان : وهو من وقوع المفرد موقع الجمع والنكرة موقع المعرفة كقوله : ﴿ ما ننسخ من آية ﴾ [البقرة : ١٠٦] ، ثم قال سبحانه : ﴿ **والبحر يمده من بعده سبعة أبحر** ﴾ أى يمده من بعد نفاده سبعة أبحر. قرأ الجمهور : ﴿ **والبحر** ﴾ بالرفع على أنه مبتدأ ، و﴿ **يمده** ﴾ خبره ، والجملة فى محل الحال، أى والحال أن البحر المحيط مع سعته يمده السبعة الأبحر مدا لا ينقطع ، كذا قال سيبويه . وقال المبرد: إن البحر مرتفع بفعل مقدر تقديره : ولو ثبت البحر حال كونه تمده من بعده سبعة أبحر. وقيل : هو مرتفع بالعطف على أن وما فى حيزها. وقرأ أبو عمرو وابن أبى إسحاق : «والبحر » بالنصب عطفا على اسم أن ، أو بفعل مضمر يفسره ﴿ **يمده** ﴾ . وقرأ ابن هرمز والحسن : « يمده » بضم حرف المضارعة وكسرالميم، من أمد . وقرأ جعفر بن محمد : «والبحر مداده » وجواب لو: ﴿ **ما نفدت كلمات الله** ﴾ أى كلماته التى هى عبارة عن معلوماته . قال أبو على الفارسى : المراد بالكلمات والله أعلم : ما فى المقدور دون ما خرج منه إلى الوجود ، ووافقه القفال فقال : المعنى : أن الأشجار لوكانت أقلاما والبحار مدادا فكتب بها عجائب صنع الله الدالة على قدرته ووحدانيته لم تنفذ تلك العجائب . قال القشيرى : رد القفال معنى الكلمات إلى المقدورات ، وحمل الآية على الكلام القديم أولى . قال النحاس : قد تبين أن الكلمات ها هنا يراد بها العلم وحقائق الأشياء ؛ لأنه جل وعلا علم قبل أن يخلق الخلق ما هو خالق فى السموات والأرض من شىء ، وعلم ما فيه من مثاقيل الذر، وعلم الأجناس كلها وما فيها من شعرة وعضو وما فى الشجرة من ورقة وما فيها من ضروب الخلق . وقيل : إن قريشا قالت : ما أكثر كلام محمد ، فنزلت ، قاله السدى. وقيل : إنها لما نزلت : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ [الإسراء: ٨٥] فى اليهود ، قالوا : كيف وقد أوتينا التوراة فيها كلام الله وأحكامه ، فنزلت . قال أبو عبيدة : المراد بالبحر هنا : الماء العذب الذى ينبت الأقلام، وأما الماء المالح فلا ينبت الأقلام . قلت : ما أسقط هذا الكلام وأقل جدواه ﴿ **إن الله عزيز حكيم** ﴾ أى غالب لايعجزه شىء ، ولا يخرج عن حكمته وعلمه فرد من أفراد مخلوقاته . ﴿ **ما خلقكم**

ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ﴾ أى إلا كخلق نفس واحدة وبعثها . قال النحاس : كذا قدره النحويون كخلق نفس مثل قوله : ﴿ واسئل القرية ﴾ [يوسف : ٨٢] قال الزجاج : أى قدرة الله على بعث الخلق كلهم وعلى خلقهم كقدرته على خلق نفس واحدة وبعث نفس واحدة ﴿ **إن الله سميع** ﴾ لكل ما يسمع ﴿ **بصير** ﴾ بكل ما يبصر .

وقد أخرج البيهقى فى الشعب عن عطاء قال: سألت ابن عباس عن قوله : ﴿ **وأسبغ عليكم** ﴾ الآية ، قال : هذه من كنوز علمى ، سألت عنها رسول الله ﷺ فقال : « أما الظاهرة : فما سوى من خلقك ، وأما الباطنة : فما ستر من عورتك، ولو أبداها لقلاك أهلك فمن سواهم » [(١)] . وأخرج ابن مردويه، والبيهقى فى الشعب، والديلمى وابن النجار عنه قال: « سألت رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿ **وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة** ﴾ فقال: أما الظاهرة : فالإسلام وما سوى من خلقك وما أسبغ عليك من رزقه ، وأما الباطنة : فما ستر من مساوى عملك » [(٢)] . وأخرج ابن مردويه عنه أيضا قال : النعمة الظاهرة : الإسلام ، والنعمة الباطنة: كل ما يستر عليكم من الذنوب والعيوب والحدود . وأخرج الفريابى وابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضا أنه قال فى تفسير الآية هى : لا إله إلا الله .

وأخرج ابن إسحاق [(٣)] وابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿ **ولو أن ما فى الأرض** ﴾ الآية ؛ أن أحبار اليهود قالوا لرسول الله ﷺ بالمدينة : يا محمد ، أرأيت قولك ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ [الإسراء : ٨٥] إيانا تريد أم قومك ؟ فقال: « كُلا » ، فقالوا : ألست تتلو فيما جاءك : أنا قد أوتينا التوراة وفيها تبيان كل شىء ؟ فقال : « إنها فى علم الله قليل » ، وأنزل الله : ﴿ **ولو أن ما فى الأرض** ﴾ الآية [(٤)] . وأخرجه ابن مردويه عنه بأطول منه . وأخرج ابن مردويه أيضا عن ابن مسعود نحوه .

﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٩) ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٣٠) أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣١) وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ** ﴾

---

(١) البيهقى فى الشعب (٤١٨٥) وإسناده ضعيف ، فيه محمد بن عبد الرحمن بن محمد قال الدارقطنى : «متروك هو وأبوه وجده » . لسان الميزان ٥/ ٢٥٥ .

(٢) البيهقى فى الشعب (٤١٨٤) وإسناده ضعيف لضعف روح بن عبد الواحد . لسان الميزان ٢/٤٦٦ .

(٣) فى المطبوعة : « ابن أبى إسحاق » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

(٤) ابن هشام ١/ ٣٣٦ وابن جرير ٢١/ ٥٢ وقال ابن كثير ٥/ ٣٩٥ : « وهذا يقتضى أن الآية مدنية والمشهور أنها مكية والله أعلم » .

مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (٣٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٣٣) إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (٣٤) ﴾ .

الخطاب بقوله : ﴿ **ألم تر** ﴾ لكل أحد يصلح لذلك أو للرسول ﷺ ﴿ **أن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل** ﴾ أى يدخل كل واحد منهما فى الآخر ، وقد تقدم تفسيره فى سورة الحج والأنعام ﴿ **وسخر الشمس والقمر** ﴾ أى ذللهما وجعلهما منقادين بالطلوع والأفول تقديرا للآجال وتتميما للمنافع ، والجملة معطوفة على ما قبلهما مع اختلافهما ﴿ **كل يجرى إلى أجل مسمى** ﴾ اختلف فى الأجل المسمى ماذا هو؟ فقيل : هو يوم القيامة . وقيل : وقت الطلوع ووقت الأفول ، والأول أولى ، وجملة : ﴿ **وأن الله بما تعملون خبير** ﴾ معطوفة على ﴿**أن الله يولج** ﴾ أى خبير بما **تعملونه** من الأعمال ؛ لا تخفى عليه منها خافية ؛ لأن من قدر على مثل هذه الأمور العظيمة **فقدرته على** العلم بما **تعملونه** بالأولى. قرأ الجمهور : ﴿ **تعملون**﴾ بالفوقية ، وقرأ السلمى ونصر بن عامر والدورى عن أبى عمرو بالتحتية **على** الخبر . والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى ما تقدم ذكره ، والباء فى ﴿ **بأن الله** ﴾ للسببية ، أى ذلك بسبب أنه سبحانه ﴿ **هو الحق** ﴾ وغيره الباطل، أو متعلقة بمحذوف ، أى فعل ذلك ليعلموا أنه الحق ﴿**وأن ما يدعون من دونه الباطل** ﴾ قال مجاهد : الذى يدعون من دونه هو الشيطان . وقيل : ما أشركوا به من صنم أو غيره ، وهذا أولى ﴿ **وأن الله هو العلى الكبير** ﴾ معطوفة على جملة : ﴿ **أن الله هو الحق** ﴾ والمعنى : أن ذلك الصنع البديع الذى وصفه فى الآيات المتقدمة للاستدلال به على حقية الله ، وبطلان ما سواه ، وعلوه وكبريائه ﴿ **هو العلى** ﴾ فى مكانته ، ذو الكبرياء فى ربوبيته وسلطانه .

ثم ذكر من عجيب صنعه وبديع قدرته نوعا آخر فقال : ﴿ **ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمت الله** ﴾ أى بلطفه بكم ورحمته لكم ، وذلك من أعظم نعمه عليكم : لأنها تخلصكم من الغرق عند أسفاركم فى البحر لطلب الرزق ، وقرأ ابن هرمز : « بنعمات الله » جمع نعمة ﴿**ليريكم من آياته** ﴾ « من » للتبعيض ، أى ليريكم بعض آياته. قال يحيى بن سلام : وهو جرى السفن فى البحر بالريح. وقال ابن شجرة : المراد بقوله : ﴿ **من آياته** ﴾ : ما يشاهدونه من قدرة الله . وقال النقاش : ما يرزقهم الله فى البحر ﴿ **إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور** ﴾ هذه الجملة تعليل لما قبلها ، أى إن فيما ذكر لآيات عظيمة لكل من له صبر بليغ وشكر كثير ، يصبر عن معاصى الله ويشكر نعمه .

﴿ **وإذا غشيهم موج كالظلل** ﴾ شبه الموج لكبره بما يظل الإنسان من جبل أو سحاب أو غيرهما ، وإنما شبه الموج وهو واحد بالظلل ، وهى جمع ، لأن الموت يأتى شيئا بعد شىء ويركب بعضه بعضا . وقيل : إن الموج فى معنى الجمع لأنه مصدر ، وأصل الموج : الحركة والازدحام ، ومنه يقال : ماج البحر وماج الناس . وقرأ محمد ابن الحنفية : « موج كالظلال » جمع ظل : ﴿ **دعوا الله مخلصين له الدين** ﴾ أى دعوا الله وحده لا يعولون على غيره فى خلاصهم ؛ لأنهم يعلمون أنه لا يضر ولا ينفع سواه ، ولكنه تغلب على طبائعهم العادات وتقليد الأموات ، فإذا وقعوا فى مثل هذه الحالة اعترفوا بوحدانية الله ، وأخلصوا دينهم له ؛ طلبا للخلاص والسلامة مما وقعوا فيه ﴿ **فلما نجاهم إلى البر** ﴾ صاروا على قسمين : فقسم ﴿**مقتصد** ﴾ أى موف بما عاهد عليه الله فى البحر من إخلاص الدين له ، باق على ذلك بعد أن نجاه الله من هول البحر ، وأخرجه إلى البر سالما . قال الحسن : معنى : ﴿ **مقتصد** ﴾ مؤمن متمسك بالتوحيد والطاعة. وقال مجاهد: مقتصد فى القول مضمر للكفر ، والأولى ما ذكرناه ، ويكون فى الكلام حذف، والتقدير: فمنهم مقتصد ومنهم كافر، ويدل على هذا المحذوف قوله : ﴿**وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور** ﴾ الختر : أسوأ الغدر وأقبحه ، ومنه قول الأعشى :

بالأبلق الفرد من تيماء منزله حصن حصين وجار غير ختار

قال الجوهرى : الختر : الغدر ، يقال : ختره فهو ختار . قال الماوردى : وهذا قول الجمهور. وقال ابن عطية: إنه الجاحد ، وجحد الآيات : إنكارها ، والكفور : عظيم الكفر بنعم الله سبحانه . ﴿ **يأيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزى والد عن ولده** ﴾ أى لا يغنى الوالد عن ولده شيئا ، ولا ينفعه بوجه من وجوه النفع لاشتغاله بنفسه . وقد تقدم بيان معناه فى البقرة ﴿ **ولا مولود هو جاز عن والده شيئا** ﴾ ذكر سبحانه فردين من القرابات وهو الوالد والولد، وهما الغاية فى الحنو والشفقة على بعضهم البعض، فما عداهما من القرابات لا يجزى بالأولى ، فكيف بالأجانب ؟ اللهم اجعلنا ممن لا يرجو سواك ولا يعول على غيرك ﴿ **إن وعد الله حق** ﴾ لا يتخلف فما وعد به من الخير وأوعد به من الشر فهو كائن لا محالة ﴿ **فلا تغرنكم الحياة الدنيا** ﴾ وزخارفها فإنها زائلة ذاهبة ﴿ **ولا يغرنكم بالله الغرور** ﴾ قرأ الجمهور: ﴿**الغرور**﴾ بفتح الغين المعجمة . والغرور هو : الشيطان ؛ لأن من شأنه أن يغر الخلق ويمنيهم بالأمانى الباطلة ، ويلهيهم عن الآخرة ، ويصدهم عن طريق الحق . وقرأ سماك بن حرب وأبو حيوة وابن السميقع بضم الغين مصدر غر يغر غرورا ، ويجوز أن يكون مصدرا واقعا وصفا للشيطان على المبالغة .

﴿ **إن الله عنده علم الساعة** ﴾ أى علم وقتها الذى تقوم فيه . قال الفراء : إن معنى هذا الكلام النفى ، أى ما يعلمه أحد إلا الله عز وجل . قال النحاس : وإنما صار فيه معنى النفى لما ورد عن النبى ﷺ أنه قال فى قوله : ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ﴾ [الأنعام :

٥٩] « إنها هذه » (١) ﴿ **وينزل الغيث** ﴾ فى الأوقات التى جعلها معينة لإنزاله ولا يعلم ذلك غيره ﴿ **ويعلم ما فى الأرحام** ﴾ من الذكور والإناث والصلاح والفساد ﴿ **وما تدرى نفس** ﴾ من النفوس كائنة ما كانت من غير فرق بين الملائكة والأنبياء والجن والإنس ﴿ **ماذا تكسب غدا** ﴾ من كسب دين أو كسب دنيا ﴿ **وما تدرى نفس بأى أرض تموت** ﴾ أى بأى مكان يقضى الله عليها بالموت . قرأ الجمهور : ﴿ **وينزل الغيث** ﴾ مشددا . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائى مخففا . وقرأ الجمهور : ﴿ **بأى أرض** ﴾ وقرأ أبى بن كعب وموسى الأهوازى : « **بأية** » وجوز ذلك الفراء وهى لغة ضعيفة . قال الأخفش : يجوز أن يقال : مررت بجارية أى جارية . قال الزجاج : من ادعى أنه يعلم شيئا من هذه الخمس فقد كفر بالقرآن لأنه خالفه .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ختّار** ﴾ قال : جحاد . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **ولا يغرنكم بالله الغرور** ﴾ قال : هو الشيطان . وكذا قال مجاهد وعكرمة وقتادة . وأخرج الفريابى وابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد قال : جاء رجل من أهل البادية فقال : إن امرأتى حبلى ، فأخبرنى ما تلد ؟ وبلادنا مجدبة، فأخبرنى متى ينزل الغيث ؟ وقد علمت متى ولدت، فأخبرنى متى أموت ؟ فأنزل الله: ﴿**إن الله عنده علم الساعة**﴾ الآية (٢) . وأخرج ابن المنذر عن عكرمة نحوه وزاد : وقد علمت ما كسبت اليوم، فماذا أكسب غدا ؟ وزاد أيضا أنه سأله عن قيام الساعة . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ : « مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله : لا يعلم ما فى غد إلا الله ، ولا متى تقوم الساعة إلا الله ، ولا ما فى الأرحام إلا الله ، ولا متى ينزل الغيث إلا الله ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت إلا الله » (٣) . وفى الصحيحين وغيرهما من حديث أبى هريرة فى حديث سؤاله عن الساعة وجوابه بأشراطها ، ثم قال : « فى خمس لا يعلمهن إلا الله ، ثم تلا هذه الآية » وفى الباب أحاديث .

---

(١) البخارى فى التفسير (٤٦٢٧) والنسائى فى الكبرى فى النعوت (٧٧٢٨/ ١) كلاهما عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « مفاتح الغيب خمس : ﴿ **إن الله عنده علم الساعة** ﴾ الآية » .

(٢) ابن جرير٢١/ ٥٥ .

(٣) أحمد ٢/ ٥٢ والبخارى فى التفسير (٤٦٩٧) .